اليـــــابان
تلقى على الشرق درساً

للأستاذ محمد مختار المحامي

جاء فى الصحف اليومية منذ عهد قريب أن مصانع اليابان أخرجت سيارات زهيدة الثمن فى طاقة كل شخص أن يقتنيها وهى تريد أن تغمر بها أسواق العالم ، وقد كان لهذا الخبر رجة عنيفة فى جميع الدول ، فقد أوقعها فى حيرة شديدة إزاء هذا التيار الجارف الصادر من أقصى الشرق .

منذ نصف قرن تقريباً استيقظت اليابان من أحلامها ، وبخطوات العالقة اقتحمت الهوة التى تفصلها عن الحضارة الغربية الحديثة فتركت وراءها قروناً غطت فيها فى سبات عميق ، ورفعت الحجاب عن أعين الشرق ونبهته إلى الحقيقة التى غابت عنه ، وأظهرته على باطل مايلقى إليه المستعمرون من أن الشرق يعيش فى الماضى ، وأن من المحال إحياءه وجعله يسير فى طريق التقدم لأن وجهه دائماً إلى الخلف ، وقد قبلنا هذا الاتهام وآمنا به ، وفعل فينا فعل التنويم المغناطيسى إلى أن أتت اليابان ففككت طلاسم هذا السحر ، وكنا قد نسينا أن نشأة الفلسفة والعلم والآداب وكل أديان العالم لم تكن إلا فى الشرق ، فكيف تتهم أراضيه بالعقم وعقوله بالخمود ، وهى التى قد حملت مشاعل الحضارة وقت أن كان الغرب يتخبط فى الظلام ؟

لقد دهش العالم أيما دهشة حين حطمت اليابان الحواجز التى كانت تحجزها عن العالم بين يوم وليلة ، ثم خرجت منتصرة أيما انتصار ، فقد فعلت ذلك فى وقت قصير كالوقت الذى تغير فيه الثياب ، لا الوقت الذى توضع فيه أسس حضارة جديدة ، وقد أظهرت أصدق مظاهر قوة الخصب والقدرة على العيش فى هذه الحياة الجديدة ، فقيل إن هذا الانقلاب ليس إلا مسخة من مسخ التاريخ ، أو فقاعة كمقاطيع الصابون كاملة فى استدارتها ولونها ، جوفاء فى قلبها ومادتها . ولكن اليابان أثبتت أن تطورها لم يكن لحظة دهشة قصيرة ، أو فرصة من فرص مد الزمن وجزره .

الحقيقة أن اليابان قديمة وحديثة فى آن واحد ، فهى لم تترك تراث الشرق القديم وثقافته التى تدفع الانسان إلى البحث عن القوة والسعادة الحق فى أصل نفسه والتى توحى اليه برباطة الجأش عند مواجهة الخسائر والأخطار ، وبالتضحية التى لا تحسب حساباً للكسب ويتحدى الموت . فاليابان زهرة من أزهار اللوتس تنمو بسهولة ورشاقة محافظة على الأعماق التى منها نمت ، ومع ذلك فقد تسلقت اليابان إلى آخر ماوصل إليه الغرب وصارت تعج فيها الحضارة الحديثة بكل مسئولياتها .

إذن الحياة والقوة كائنتان فى الشرق ، ولكنهما كامنتان تغطيهما قشرة ميتة يجب أن تزول ، لأن الاحتماء بالميت موت ، واحتمال أخطار الحياة حياة .

ولا يظن أحد أن اليابان قد وصلت إلى ما وصلت إليه بالتقليد ، لأننا لا نستطيع تقليد الحياة والقوة لأمد طويل ، بل إن التقليد مصدر من مصادر الضعف ، فهو يعوق طبيعة الأمة الحقيقية ، لأنه كالباس هيكل عظمى لانسان ما ، إهاب إنسان آخر .

لقد استمدت اليابان غذاءها من الغرب ، ولكنها لم تستمد منه حيويتها ، بل احتفظت بروحها ، وهذه هى المعجزة التى بهرت أعين العالم ، فقد علمت عن حق ويقين أنه لا يمكن قبول المدنية الغربية على علاتها ، تلك المدنية التى لم تحل بعد أعظم مشاكل الوجود كالتنازع بين الفرد والدولة ، وبين العمل ورأس المال ، وبين الرجل والمرأة ، والتنازع بين شره الكسب المادى والحياة الروحية للانسان ، وبين أطماع الأمم المنظمة والمثل العليا للانسانية ، تلك المدنية التى تتغنى بالحرية ، ثم تأتى بأقسى ضروب العبودية ، تلك المدنية التى يفقد الانسان تحت تأثير سحرها كل ثقة فى المثل العليا التى جعلته من قديم الزمن إنساناً .

والحق يقال إن النفس الشرقية بما انطوت عليه من قوة روحية وحب للبساطة واعتراف بالواجبات الاجتماعية عليها أن تحكم العقل الشرقى إذا أرادت أن تشق طريقاً وسط هذه المعمعة الغربية ، وعليها ألا تلقى وراء ظهرها تراث الأجيال الماضية كما تلقى الملابس البالية ، إذ أن هذا التراث فى دمها وفى نخاع عظمها وفى تكوين لحمها ، وفى ألياف مخها ، وهو يكيف دون أن تشعر ودون أن تريد كل ما تضع عليه يديها بتكييفه الخاص .

ومن تراث الماضى وغذاء الحاضر المستمد من الغرب عليها

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]